على هامش المؤتمر الأول للوثائق والمخطوطات في ليبيا

عمر يعقوب
قسم الدراسات الاسلامية
بكلية التربية ـ جامعة الفاتح

بمبادرة مشتركة من مؤسستين ثقافيتين علميتين في بلدنا: مركز الجهاد والمعهد العالي لإعداد المعلمين، كانت فكرة إقامة مؤتمر تاريخي ثقافي تراثي وثائقي، تعالج فيه قضايا متصلة بهذه الموضوعات المتشابكة: مركز الجهاد مهتم منذ حين برصد كل ما يتصل بالتراث جمعاً لأصول المخطوطات المتفرقة هنا وهناك في المكتبات الخاصة والعامة في الحواضر والبوادي. وفي مكتبة المركز ظهر إلى الوجود ركن للمخطوطات والوثائق. وقد كان لضم مكتبة الأوقاف مطبوعات ومخطوطات أثر واضح في إثراء مكتبة المركز وتزويدها بعدد من المخطوطات. ومن الحق أن نعترف بأن نصيب قطرنا بين الأقطار الاسلامية من مصادر التراث المخطوط قليل. ومن أسباب ذلك وهو معروف مألوف ما يرجع إلى عوامله خلال الغزو الأجنبي لبلادنا حيث تعرضت مخطوطات التراث للإبادة والنهب، لكننا لم نعرف بعد كيف تخطت بلادنا مجموعات كبيرة من المخطوطات من أقطار المشرق الإسلامي إلى أقطار مغربه ومن المغرب إلى المشرق كذلك، دون أن يحتفظ بلدنا وهو معبر هذه وتلك بنصيبه منها!

هذه الفترة من تاريخ الثقافة والفكر في بلادنا تشهد بعض النشاط المتصل بهذا الجانب. ومكتبة مركز الجهاد والمكتبة المركزية بجامعة قاريونس مهتمتان بعض الاهتمام بذلك، لكننا لا ندري مدى الامكانات المتاحة لاستمرارية هذا العمل وتطوره في هاتين المؤسستين.

المعهد العالي لإعداد المعلمين بزليتن جاء على نمط كلية تهتم في برنامجها التربوي التعليمي بإعداد المعلمين ذوي الكفاءات العالية في بعض التخصصات الآن، وربما في كل التخصصات مستقبلاً إن شاء الله. هذه الكلية إنما هي نواة وتجربة قد يؤدي نجاحها إلى تطويرها وتوسيع برامج الدراسة والبحث فيها. ومن جانب آخر فإن هذه الكلية إحياء لتاريخ ثقافي قديم شهدت فيه هذه الربوع التي أسست فيها هذه الكلية الآن من جديد ـ شهدت فيه من قبل ومنذ أمد نشاطاً علمياً وحركة فكرية ثقافية، البلاد كلها مدينة لها خلال فترة طويلة من تاريخ ثقافتنا وتراثنا الاسلامي.

من أجل ما سلف كان هذا التجاوب بين مركز الجهاد والمعهد العالي بزليتن لإقامة هذا المؤتمر التراثي الوثائقي الأول الذي بدأ الإعداد له منذ شهور من قبل لجنة منظمة، تمثل عملها الأول في اقتراح مجموعة من المحاور، بعثت بورقة تضمنها إلى عدد من الباحثين في الداخل والخارج. وكان من بين موضوعات المؤتمر التي تضمنتها تلك الورقة:

١ ـ قضية التراث.

٢ ـ تطور الحياة الثقافية في المدن والقرى والواحات الليبية.

٣ ـ الواقع الماثل للوثائق والمخطوطات في ليبيا والوثائق والمخطوطات في الخارج ذات العلاقة بليبيا.

٤ ـ الشؤون الفنية للوثائق والمخطوطات: الترميم، التصنيف، الفهرسة، التحقيق. وقد حددت اللجنة المنظمة مواعيد استقبال البحوث وملخصاتها واستقبال الباحثين وانعقاد جلسات المؤتمر.

وقد بدأت أولى الجلسات صباح يوم الأحد ١٤ من شوال الموافق يوم ١٩٨٨/٥/٢٩.

وفي الجلسة الافتتاحية الأولى هذه كانت كلمة الدكتور محمد الطاهر الجراري أمين مركز دراسات الجهاد ترحيباً بالباحثين المشاركين في أعمال هذا المؤتمر الأول وتحديداً لأهداف وغايات كان تنظيم هذا المؤتمر وتحديد موضوعات بحوثه من أجل تحقيقها.

أما الدكتور عبد الحميد علي أبو مداس أمين اللجنة الادارية بالمعهد العالي لإعداد المعلمين بزليتن فقد ارتجل كلمة رحب فيها بالضيوف وحرص على ربط الحاضر بالماضي في تاريخ هذا المعهد العلمي الذي هو عود على بدء، واستمرار لتاريخ معهد إسلامي عتيق، هو زاوية الشيخ عبد السلام الأسمر بما شهدته خلال مراحل تاريخها من نشاط ثقافي وحركة فكرية فاعلة، كان لها صدى في جميع أنحاء بلادنا. وبهذا الاعتبار كانت لها مشاركة فاعلة في التاريخ العام لثقافة أمتنا الإسلامية.

وخلال ثلاثة أيام متتالية صباح مساء، تكثفت البحوث والمشاركات، وتخللتها التحليلات والتعليقات التي كان لها دور في إثارة الحوار وإثراء البحوث وإظهار كثير من جوانبها.

في اليوم الأول وفي الجلسة العلمية الأولى من أعمال هذا المؤتمر قدم الأستاذ محمد الجفائري من مركز الجهاد خلاصة بحثه عن: النهضة الفكرية في العالم الاسلامي بين التراث والمعاصرة. حاول فيه أن يرسم الخطوط الرئيسية لهذه النهضة أو بالأحرى لمحاولة بدء هذه النهضة في الأقطار الإسلامية مشيراً إلى بعض الأعلام الذين كان لمحاولاتهم وأقلامهم صدى في المجتمع الاسلامي.

ونثبت هنا أن هذا الباحث معني منذ حين بدراسة الأعمال الفكرية والاتجاه الاصلاحي للمفكر الاسلامي مالك بن نبي. وكانت أطروحته لدرجة التخصص العالي «الماجستير» نواة عمله في هذا المجال. من أجل ذلك كان بحثه في هذا المؤتمر متصلاً بالفكر والنهضة والتراث والمعاصرة، ومن أجل ذلك كان لهذا البحث أهميته.

وعن مواقف التيارات الفكرية من التراث قدم الأستاذ محمد عزت عمر من جامعة حلب بسوريا خلاصة بحثه في هذا الموضوع، وهو موضوع كما أورد الباحث في بحثه له أهميته بسبب تعدد الاتجاهات في حياتنا الفكرية وبسبب آخر وهو أن تراثنا يتضمن مجموعة من القيم، قد نتفق على إحياء بعضها، لكن البعض الآخر يبقى موضع اختلاف، ولا ضير في هذا ولا ضرر منه. لكن هذه القضية بكل جوانبها تبقى موضع اهتمام الناشر العربي وحركة النشر في العالم الإسلامي كله، فاتصال حركة النشر في أفقيها العربي والإسلامي بالتراث وإحيائه وتحقيقه، تظهر من خلال هذا الاتصال أو العلاقة بين فكرنا المعاصر واهتماماته وبين التراث الإسلامي وقيمه والظروف الاجتماعية والفكرية التي نشأ فيها. والناشر يبحث عن طريقه بين هذه الدروب، ويحاول أن يوائم بين مقتضيات العصر وبين ما تستلزمه علاقة هذه الأمة بتراثها من خلال المحافظة عليه وإحياء قيمه ومضامينه ضمن دراسات تحقيق التراث وتعيد قراءة محتوياته من جديد حتى يتحقق تواصل فكري واسع ودائم بين أجيال أمة الإسلام.

بعد هذا جاءت مساهمة فكرية تضمنت محاولة استكشاف الأسس الثابتة التي تقوم عليها العلاقة بين تراثنا الذي ننتمي إليه وحياتنا الفكرية التي نحياها في هذا العصر بكل ملابسات هذه الحياة. وقد جاءت هذه المحاولة من قبل كاتب هذه السطور وكانت بعنوان: التراث والمعاصرة. وكان القصد من ورائها إثارة الحوار في هذا المؤتمر حول قضايا جوهرية تتصل بالتراث وإحيائه وأهمية الانتقاء والتصنيف والنقد والتحليل. والفكرة التي يدور في فلكها هذا البحث كانت خلاصتها أن في التراث ما يمثل الظرف التاريخي بوصفه عنصراً هاماً من عناصره. وهذا يمكن إحياؤه في إطاره التاريخي دون أن نجهد أنفسنا في محاولة إيجاد علاقة له بحياتنا المعاصرة. كما أن في التراث قيماً تخرج بطبيعتها عن محدودية الظرف التاريخي، ومن ثم فإنها تفرض نفسها في الحياة الفكرية لأمتنا في أي ظرف زمني. وفي هذا الموضع من البحث أثيرت قضية: الإسلام والتراث. وكانت وجهة النظر المطروحة للحوار هي أن الاسلام ليس تراثاً فالتراث ألصق بالفكر الاسلامي منه بالإسلام. وقد كانت هذه القضية مثار تعليق وإبداء لوجهات نظر من قبل عدد من الباحثين. ومما أثير متصلاً بهذا الموضوع كذلك: كيف نستفيد من مناهج الدراسات التاريخية في بحثنا للأصول التراثية؟ وكيف يمكن في هذا المجال أن تظهر دراسات تراثية تاريخية متكاملة يقوم بها المعنيون بشؤون التراث وقضايا التاريخ؟

وضمن البحوث المقدمة لهذا المؤتمر كان لأعلام الفكر والثقافة في بلادنا بعض ما يستحقون من الاهتمام بهم وعرض جوانب من تاريخهم وتراثهم. وكلُّ معني بقضايا الثقافة والفكر والتراث وتراجم الأعلام يعلم مقدار اهتمام الأستاذ علي مصطفى المصراتي بالترجمة لأعلامنا المشهورين والتنقيب عن المغمورين أو من هم في الظل. وقد قدم الباحث في هذا المؤتمر أبا إسحاق الاجدابي وعرض بإيجاز جوانب من حياة هذا العالم وكان موفقاً إلى حد بعيد في رسم صورة له واضحة المعالم أدرك الحاضرون من خلالها أبعاد هذه الشخصية والآفاق الفكرية والأدبية والمكانة الاجتماعية لهذا العالم.

وإذا كان أبو إسحاق الأجدابي من أعلام طرابلس المشهورين، فإن من بين أعلامنا من لم يحظ بهذه الشهرة، ومن هؤلاء الأعلام المغمورين الشيخ عمر السوداني الذي عاش خلال عقود القرن الهجري الثاني عشر، وكان له نشاط في مسائل الفقه وقضايا التشريع ومجالس القضاء وشؤون الفتيا والافتاء. وقد سلط الضوء على جوانب من حياة هذا العالم ونشاطه الفكري الأستاذ المختار الهادي بن يونس من الباحثين بمركز الجهاد وهو معني منذ فترة بجمع الوثائق وتسجيل الروايات الشفهية من قبل من عاصروا حركة الجهاد خلال النصف الأول من هذا القرن العشرين.

وحول الحركة الفكرية والثقافية خلال فترات من تاريخ بلادنا من القرن السادس عشر إلى القرن العشرين توالت ضمن أعمال هذا المؤتمر ثلاثة بحوث في ثلاث مساهمات تسلط الضوء على هذه

الفـترة. كان البحث الأول منهـا للدكتـور عبـد الله عـلي إبـراهيم: الحيـاة الثقافيـة في فزان في القـرنـين السـادس عشر والسـابـع عشر مظاهرها ومصادر توثيقها، ذلك أن الموقع الجغرافي لفزان قد أعطاها موقعاً ثقافياً متميزاً تأثراً وتأثيراً. وإدراكاً لتلك الأهمية تمّ إنشاء مركز الدراسات الافريقية بسبها، ثم مركز اللغات الإفريقية بهـا كذلـك. وربمـا يكون لهـذين المـركـزين دور في تتبـع جـذور الحيـاة الثقـافيـة والفكـرية في تلك الـربوع من بـلادنا. والبحث المقـدم لهـذا المؤتمـر يدخل ضمن هذا الاطار.

وإذا كانت حياتنا الفكرية والثقافية متصلة اتصالاً مباشراً بـأقطار من حـولنا تـأثراً وتـأثيراً، فـإن استقصاء هـذه العلاقـات وتـوثيقهـا يتضمن ويتضمنه العمل في مجال التأريخ للثقافة في هذا القـطر من أقـطار أمة الإسـلام. وقد جـاء البحث الثاني ضمن هـذه البحـوث الثـلاثة لـلأخ الأستاذ محمـد مسعود جبران من قسم اللغة العـربية والدراسات الإسـلامية، جـامعة الفـاتح دراسـة تتصل بـالتراث من جـانب وبالحيـاة الثقافيـة ومؤثـراتهـا من جـانب آخر وكـان عنـوان البحث: تفاعل الحركة الفكرية في ليبيا مع الحياة الثقافيـة في الوطن العربي في القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين.

وموضوع هذا البحث يقع ضمن اهتمامات هـذا البـاحث الأديب منذ حين: ترجمة لـلاعلام أو كتـابة للبحـوث أو تحريـراً للمقالات. ومن قبل كل ذلك جمعاً للوثائق المتصلة بهذا الموضوع ودراسة متأنيـة إياها. وفي هذا كله تكمن أهمية الخـلاصة التي قـدمها البـاحث لهذا المؤتمر عن هذا الموضوع.

إن سجـلات المحـاكم الشرعيـة في بـلادنـا خـلال كـل العهـود التاريخية التي حفظت لنا منها وثائق. . إن هذه السجلات إلى جانب أهميتها التاريخية والفقهية وما تضمنته من صـور الاحتكام والتقـاضي والجـزاء هذه السجـلات تعدّ وثـائق للحيـاة الاجتمـاعيـة والثقـافيـة شخصيـات وعلاقـات وضروبـاً من السلوك والممـارسـات. من أجـل ذلك كانت هـذه السجلات وثـائق تستحق كل الاهتـمام تنقيباً عنهـا ومحـافظة عليهـا ودراسة لهـا وتصنيفـاً لمحتـوياتهـا. وقد جـاء البحث الثالث دعوة إلى تحقيق ذلك. البـاحث هو الأستاذ محمد الديـك أحد البـاحثين بمركز الجهاد. وقد جاء البحث بعنوان: مـلامح من الحيـاة الثقـافية في ليبيـا من خـلال سجـلات المحـاكم الشرعيـة في العهـد العثماني الثاني. والبحث يخرج من دائرة التخمـين والتقديـر ويستند إلى أصول موثقة عنى الدارس بالبحث عنها في مظانها.

إن هـذا اللون من البحث لازم في هذه المـرحلة من تاريخنـا التي نؤرخ فيها لحياتنا الثقافية، لأنه ينطلق من نظرة كليـة تكامليـة تدرك تشابك العلاقات وتعـدد عناصر المـركب الثقافي. إذ الثقـافة في أعم مفاهيمها وأشمل تحديـداتها إنمـا هي كل صـور حياة الأمـة في جميع جوانبها بحيث لا تختص فئة اجتماعيـة واحدة بتمثلهـا وتمثيلها، إنمـا المجتمـع كله أفراداً وجمـاعات وهيئـات هو منبـع الثقافـة ومصدر نمائها وتطورها.

وفي الجلسة العلمية الثالثة وهي خاتمة جلسـات اليوم الأول لهـذا المؤتمر ترددت البحوث والمساهمـات كلها بـين الوثـائق والمخطوطـات وسجـل فيها البـاحثون مجمـوعة من التصـورات النظريـة والخـبرات العمليـة من خلال الاتصـال المباشر بعـدد من نمـاذج المخـطوطـات والوثائق في جانبها الفني التقني أو من حيث الفهرسة والتـنظيم أو في مجال الدراسة والتحقيق.

في إطار العمل الفني في مجال المخطوطات جاءت مسـاهمة الأستاذ عصام محمد الشنطي من معهد المخطوطات العربية بـالكويت حيث قدم بحثاً عن: تصنيف المخطوطات العربية وفهرستها. وفي خـلاصة هذا البحث نطالـع وصفاً فنيـاً وتصوراً دقيقـاً لأي عمل فني يمكن أن يتم في إطـار التنظيم والفهـرسة. وبـدون هذا التصـور وما يتصـل به ويـترتب عليه من عمـل فإن مخـطوطـات تـراثنـا ستبقى كمّـاً مهمـلاً وشذرات مبعثرة لا يمكن تحقيقها ولا تتأتى دراستها.

من الإرشيف الوطني بتونس قدم إلى هذا المؤتمر الوثائقي الدكتور منصف الفخفـاخ ليقدم نتـائج تجـربته العمليـة المباشرة عن: أسس نـظام معالجـة الوثـائق والأرشيف. وقـد كـان بحثـاً ينبيء عن صلة وثيقة بين الباحث وموضوع بحثه. ومن خلاصة هـذا البحث يدرك المتأمل مقدار العناء الذي يجده العاملون في هذا المضمار. ولا غرابـة في ذلك إذ الوثيقة كائن تدب فيه صور من الحياة لا يـدرك كنهها إلا المهتمون بالوثائق المعنيـون بشؤونها والمحافـظة عليها وتتبـع مراحـل حياتها. وكان بحث الأستاذ المنصف تتبعاً دقيقاً لحياة الوثيقة وعناصر التأثير في هذه الحياة. إن علاقة البحث في الـوثائق بـالتراث جليـة، فبعض تـراثنا المخـطوط يعد وثـائق نادرة لا تقـدر بثمن. ومن هنـا جاءت عمليات السطو والنهب لعدد من هـذه الوثـائق على أيـدي المحتلين لبلادنا في فترات متعاقبة من التاريـخ. أما مـا بقي من هذه الوثائق محفـوظاً أو مـا أمكننا اسـترجاعـه، فإن من الـوعي الفكري والحضاري ومن الأهمية بمكان أن نوليه اهتماماً فائقاً وعناية متواصلة.

من دار المحفوظات التاريخية بمصلحـة الآثار بـطرابلس حضر إلى هذا المؤتمر أحد الباحثـين بالـدار الأستاذ محمـد عريبي. وقـد تركـز بحثـه على: الاجـراءات الفنية التي تتخـذ من أجل المحـافـظة عـلى الـوثائق بقصـد استخدامهـا لعدد من الأغـراض التاريخيـة التوثيقيـة والفكرية الثقافية. إن العمل الفني في مجال الوثائق والمحافظة عليهـا لـه لوازمـه وكفاءاتـه، وله نتـائجه وآثـاره، وهو حلقـة من حلقـات العمـل المتكـامـل في مجـال تحقيـق الـتراث. أمّـا عن الـضبط «البيليوجرافي» أو ضبط الفهارس للوثائق الرسمية فقد قدم الـدكتور أبـو بكر الهوش من قسم المكتبات بكلية التربيـة جـامعـة الفـاتـح معلومـات مركـزة حرص خـلال عرضـه إياهـا عـلى تقـديم تصـوره متضمناً توجيه النقد للجهات المعنية في الأقطار العربيـة. ولعله محق

في ذلك لأنه يستند إلى تجربة عملية واتصال مباشر بمصادر المعلومات. ولعل الخدمات غير المتناهية التي يمكن الحصول عليها بكل يسر في هذا المجال من الهيئات الأجنبية المعنية التي تعامل معها الباحث عن قرب هي التي جعلته ينطلق في بحثه ونقده من وضع يتصوره ونتصوره معه نحن ونأمل أن يكون. ولكن القضية أعقد من ذلك، ومعالجتها تستلزم اعتبار كل ملابساتها، ومن المهم ومن العملي كذلك أن يقدر الباحث في بحثه الوضع الذي يتحرك في دائرته والامكانات الفعلية لبيئته ويبقى العمل من أجل الوصول إلى الأفضل مهمة الجميع.

ومن خلال القواعد النظرية المقررة واللازمة للعمل في مجال تحقيق النصوص واعتماداً على تجربة عملية مباشرة في إطار العمل الأكاديمي كان البحث الذي قدمه الدكتور محمد مصطفى صوفية أستاذ البلاغة والنقد بكلية التربية جامعة الفاتح، وبالمعهد العالي لإعداد المعلمين بزليتن. وقد تركزت خلاصة هذا البحث حول ما يستلزمه العمل في مجال تحقيق المخطوطات ودراستها أياً كانت موضوعاتها. وقد تناول الباحث إلى جانب ذلك أموراً تتصل بالتراث والمحافظة عليه وبالظروف التي مرت ببعض الأقطار الاسلامية وأدت إلى أن «يرحل» الكثير من مخطوطات التراث إلى الغرب، فيما يشبه عمليات السطو والسرقة والقرصنة الفكرية؛ وهي أوصاف لا تكفي في تصوير موقف الغرب أثناء فترات حكمه للأقطار الإسلامية من مخطوطات تراثنا ووثائق هذا التراث. إن الباحث من خلال حواره مع الحاضرين لا يتنكر لما آل إليه أمر التراث الإسلامي في أقطار الغرب: محافظة عليه وتصنيفاً له ودراسات حوله، ولكن هذه النتائج على أهميتها لا تعفينا من النظرة الكلية إلى هذه القضية وهي أن تراثنا قد أصبح ملكاً لغيرنا وصرنا نستجدي هذا الغير من أجل أن نطلع على أو نقتني صورة مما كتبه الأسلاف عصارات أفكار وقطرات دماء، وحبات عرق وروحاً ترفرف على أقطار حييت فيها تلك الكائنات التراثية أو تلك الأوراق التي كانت تنبض حركة وتفيض حيوية في حياة هذه الأمة، لكنها الآن تعيش في عالم تنفر منه لأنها غريبة عنه مهما احتفى بها وأسبغ عليها.

وفي إطار العمل الفني في مجال التراث مخطوطاته ووثائقه كانت مساهمة الدكتورة مبروكة محيريق من قسم المكتبات كلية التربية جامعة الفاتح. حيث سردت على المشاركين في هذا المؤتمر مجموعة من الأعمال والاجراءات الفنية التي يلزم القيام بها من أجل صيانة المخطوطات وترميمها؛ فكثير من التراث المخطوط يبقى مهملاً منسياً في ظروف بيئية سيئة ثم ينفض عنه الغبار لتدب فيه الحياة من جديد، وإنما يتأتى ذلك بسلسلة من الأعمال والاسعافات الأولية اللازمة. ولعل وسائل التقنية الحديثة توفر أسباب الحياة لما آل إلى هذه الحال من المخطوطات والوثائق. وقد حددت السيدة الباحثة عدداً من الاجراءات العملية التي تتم في هذا المجال.

في اليوم الثاني من أيام انعقاد هذا المؤتمر وفي الجلسة الرابعة من جلسات أعماله قدمت خلاصات لعدد من البحوث والمساهمات تتصل بالمخطوطات وبالحياة الثقافية في عدد من مناطق هذا القطر بين زليتن والجبل الغربي وغدامس وغات:

فمن زاوية الشيخ عبد السلام الأسمر بزليتن حاول كاتب هذه السطور وهو واحد من طلاب هذه الزاوية أن يرسم المعالم الرئيسية للنشاط العلمي والحياة الثقافية في هذه الزاوية التي مضى على تأسيسها أكثر من أربعة قرون كانت خلالها موئلاً لطلاب العلم ومقصداً للرحالة والعلماء. وقد وردت في هذه الخلاصة عن تاريخ هذه الزاوية دعوة إلى توثيق هذه الصورة من صور حياتنا الثقافية قبل أن تتلاشى معالمها.

وفي إطار التعريف بالمخطوطات في بلادنا قدم الأستاذ عبد الحميد الهرامة من قسم اللغة العربية والدراسات الاسلامية. كلية التربية ـ جامعة الفاتح مسرداً لنماذج من مخطوطات توجد متفرقة في المكتبات الخاصة والعامة بمناطق الجبل الغربي. والباحث معني منذ حين باستقراء المخطوطات في تلك المنطقة. ومن الحق أن نقول إن مناطق عديدة في بلادنا كانت تعج بنشاط ثقافي وفكري واسع حتى في ظروف اجتماعية ضغطت فيها مؤثرات مختلفة في مقدمتها الوجود الصليبي الايطالي الهمجي الحاقد. أما نتيجة ذلك النشاط الفكري فقد كانت مجاميع من كتب التراث في فروع متعددة من المعرفة تناقلتها الأجيال وحافظت عليها الأسر. وواجبنا الآن هيئات وأفراداً أن نتولاها بالحفظ والرعاية، وأن نوليها ما تستحق من الاهتمام تصنيعاً ودراسة وتحقيقاً ـ وكانت هذه دعوة الباحث التي ذيل بها محتوى مسرده المنتقى.

ومن منطقة غدامس حيث احتفظت تلك الأجزاء من بلادنا بأصالتها وطابعها الإسلامي ومركبها الثقافي، جاء الأستاذ بشير قاسم يوشع ليشارك في أعمال هذا المؤتمر الوثائقي التاريخي بتقديم صفحات بها معلومات مركزة عن الحياة الفكرية والثقافية بغدامس خلال بعض فترات التاريخ.

وتختزل المساحة بين زليتن وغدامس والجبل الغربي وغات حيث يطلعنا الأستاذ أحمد عون الله على صفحات تتضمن معلومات عن مخطوطات غات ووثائقها. وإذا كانت الطيور تهاجر فإن المخطوطات تفعل ذلك أيضاً مع فروق بين الهجرتين. وحين بدأت عمليات القرصنة والتهجير في محيط التراث ضد المخطوطات في هذا البلد، كان الجبل وكان الجنوب كذلك موئلاً ومعقلاً حصيناً لما سلم من المخطوطات والوثائق أثناء تلك الحملات. ولعل المسح الثقافي لكل مناطق بلادنا يظهر الكثير من تلك المخطوطات إلى النور، ويبرز طرفاً من مشاركات أبناء هذا القطر في المحافظة على تراث أمة الإسلام. إن العلاقة بين تاريخ الثقافة الإسلامية وبين المسجد يدركها على حقيقتها من يفهم دور المسجد في تاريخ الإسلام

والمسلمين. وهو دور أصيل وقديم قدم حركة الدعوة الاسلامية ذاتها في مرحلتها الأولى في عصر النبوة: كتائب الجهاد كانت تنطلق من المسجد، ومن قبلها السرايا ومجموعات الدعاة. وحلقات الدرس كانت المساجد عامرة بها. وشؤون المسلمين أفراداً وجماعات وأمة كانت تجد في المسجد رحابة صدر ومكاناً مناسباً ومتسعاً لطرحها من أجل التشاور ثم الانتهاء إلى رأي فيها، وهو رأي سنده الشورى ومن ثم فهو ملزم للجميع. ومع أن دور المسجد في حياة مجتمعنا الإسلامي قد تقلص منذ حين فإن الأستاذ محمد الطوير من قسم التاريخ ـ كلية التربية ـ جامعة الفاتح، حاول أن يبرز أثر المسجد في إثراء الحياة الفكرية في ليبيا. وهو يحدد الفترة التي تناولها بحثه بالعهد العثماني. وهي فترة تاريخية يمكن القول بأن وثائقها قد أغفلت في دراستها، وأن مؤثرات سياسية لاحقة قد فعلت فعلها في القصد إلى تغيير معالم الصورة التاريخية لتلك الفترة. لقد تواصلت الجلسات العلمية لهذا المؤتمر الوثائقي وتوالت البحوث والمساهمات وصور الحوار والمناقشات. في هذا الموضع من هذه الصفحات نستدرك لنشير إلى ما لم نشر إليه سلفاً وهو يتصل ببحث الدكتور عصام الشنطي. لقد حدد الباحث عدداً من المشكلات المتصلة بالمخطوطات العربية، وكان من بين هذه المشكلات الفهرسة والتصنيف: إن بقاء مخطوطات تراثنا دون فهرسة ودون طبع هذه الفهارس ونشرها يجعل ـ كما أثبت الباحث ـ المكتبات العامة والخاصة أينما كانت بمثابة مخازن للمخطوطات كأنها كنوز ثمينة لا فائدة تجنى منها. لقد حدد الدكتور عصام مجموعة من التصورات المتصلة بالجانب التنظيمي والفني في عمل الفهارس والتصنيفات.

ومما يتصل ببلدنا في هذه الدراسة ما أشار إليه الباحث من الفرص المتاحة كل عام من قبل معهد المخطوطات بالكويت لتدريب عناصر عاملة في هذا المجال من كل قطر عربي.

إن بلدنا أحوج ما تكون إلى الإستفادة من هذه الفرص لتكوين كفاءات في هذا المضمار التوثيقي التراثي الفكري. وأخيراً كان اقتراح الباحث أن يضطلع مركز الجهاد هنا بمهمة إعداد الكفاءات من خلال وضع الخطط وإقامة الدورات.

من قسم الشريعة الاسلامية بكلية القانون ببنغازي كانت مشاركة الدكتور عبد السلام محمد الشريف وكان بحثه متجهاً إلى بيان دور المخطوطات الليبية في تأصيل نظريات الفقه الإسلامي. وفي مقدمة بحثه أشار الباحث إلى الملابسات والضغوط التي تمارسها مدارس القانون في الغرب على الفقه الإسلامي وأصالته وبراعة أعلامه ونظرياته التي تحتاج دائماً إلى نظرات جديدة وجدية لكي تواكب حركة التطور في الاجراءات والمعاملات. ونشير هنا إلى أن مثل هذه المقارنات التي تعقد بين نظريات في الفقه القانوني الغربي وبين ما يقابلها في الفقه الإسلامي ليس القصد من هذه المقارنات مقابلة الشريعة الإسلامية، وهي معصومة في أصولها المتصلة بالوحي مقابلتها بالقوانين الوضعية وهي نتيجة نظرات إنسانية نسبية تحتمل الخطأ كما تحتمل الصواب. إنما القصد دائماً هو مقابلة بين نظريات واجتهادات فقيه هنا وهناك. وفي هذا الاطار حدد الباحث مخطوطتين ليبيتين ضمنها مؤلفاهما الليبيان الحطاب الكبير والحطاب الصغير موضوعين لهما أهمية فائقة في النظريات الفقهية قديماً وحديثاً. أما موضوع المخطوطة الأولى فهو: الالتزام العقدي المتعلق بعقود المعاوضة. وأما المخطوطة الثانية ففيها تفصيل وأصول نظرية الجوائح وعلاقتها بنظرية الظروف الطارئة. وفي نهاية بحثه حدد الباحث مجموعة من السمات والخصائص التي تميز بها الفقه الإسلامي في عصور ازدهاره وعطائه.

الأستاذ أبو القاسم محمد كرو من اللجنة الثقافية القومية بوزارة الثقافة بتونس، يعرفه رواد المركز الثقافي التونسي بطرابلس جاء إلى زليتن للمشاركة في مؤتمر الوثائق هذا. وقد عني الباحث في مساهمته برصد المخطوطات الليبية في المكتبات التونسية التي تتصدرها دار الكتب الوطنية حيث توجد ذخيرة من مخطوطات التراث قوامها خمسة وعشرون ألف مخطوط. ثم مكتبة جامع عقبة بن نافع بالقيروان حيث أنفس المخطوطات وأكثرها عراقة في القدم وأصالة في التراث. من أجل ذلك حظيت هذه المكتبة بما لم يحظ بها غيرها من المكتبات، واشتهرت بالمكتبة العتيقة. ثم هناك مكتبات الزوايا والمكتبات الخاصة التي تحتضن رفوفها عدداً من نوادر المخطوطات. وقد أشار الباحث في مسرده إلى مخطوطة موطأ الامام مالك برواية علي بن زياد الطرابلسي المتوفي بتونس عام ١٨٣ هـ. فهذا المخطوط لهذا العالم الليبي هو كما يقول الباحث أول وأقدم وأنفس مخطوط ليبي موجود اليوم في المكتبات التونسية.

إن هذا الباحث معني منذ سنين بتتبع الأعلام الليبيين بتونس ورصد آثارهم من أجل ذلك هو يشير بالتحديد إلى أن المخطوطات الموجودة بتونس لهؤلاء الأعلام يتجاوز ما رصد منها حتى الآن خمسمائة كتاب ورسالة ونص؛ تتوزعها أكثر من ثلاثين مكتبة خاصة ومحبسة مع دار الكتب الوطنية. وما ألحق بها من مكتبات. لكن معظم هذه المخطوطات لم تفهرس ولا يوجد لها دليل. ويشير الباحث كذلك إلى قائمة مخطوطات محتواها أكثر من سبعين مخطوطة ليبية موجودة في ثلاث مكتبات خاصة هي مكتبة الشيخ الطاهر ابن عاشور، ومكتبة علي النوري، ومكتبة الباحث الخاصة. وقد أرفق الباحث بحثه بقائمة تشتمل على أسماء المخطوطات الليبية في المكتبات التونسية.

من جامعة الزيتونة جاء للمشاركة في أعمال هذا الملتقى الدكتور محمد أبو الأخفان وهو أستاذ بكلية الشريعة بتلك الجامعة يُعنى بتراث الفقه الاسلامي وتحقيق نوادر مخطوطاته. وكانت مشاركته في هذا المؤتمر ذات اتصال بالتراث من جانب وببلدنا هذا من جانب آخر. فقد كتب عن ليبيا في كتب الرحلات، حيث كان لهذا

القطر موقعه المتميز بين مشرق العالم الاسلامي ومغربه. ومن ثم كان معبراً للرحالة من الحجاج والعلماء الذين كثيراً ما يحلو لهم ويطول بهم المقام هنا. ويشير الباحث إلى نشاط عدد من الدارسين في تونس، وتوجههم إلى دراسة النصوص التراثية المتعلقة بليبيا. وتقع ضمن ذلك دراسة الدكتور عبد الهادي التازي وتحقيقه لنصوص رحلة الإسحاقي. كذلك دراسة الباحث ـ الدكتور أبو الأجفان ـ وتحقيقه لنصوص رحلة أبي الحسن القلصادي الأندلسي. وفي بحث الدكتور أبو الأجفان في هذا المؤتمر يوجه أنظار الدارسين وأقلام المحققين إلى ست رحلات لستة من الرحالة المغاربة، بين منتصف القرن الحادي عشر ومنتصف القرن الثاني عشر للهجرة، مروا ببلادنا، وسجلوا خواطرهم عن أهلها، وعن مراكز الثقافة ومعاهد العلم في ربوعها. ونشير هنا إلى الرحّالة أبي سالم العياشي الذي أشار الباحث إلى إحدى رحلتيه في مسرد الرحلات. لقد كان لهذا الرحّالة رحلتان مرَّ في كلتيهما ببلادنا. لكنه في رحلته الكبرى التي اشتهرت بماء الموائد، نزل ضيفاً بهذه الربوع في هذا المعهد العتيق الذي يستضيف اليوم هذا المؤتمر.

أشار الباحث كذلك إلى رحلات: القادري، واليوسي، والحضيكي، وأبي مدين الدرعي، وعبد المجيد المنالي.

وقد أتاحت هذه الرحلات تواصلاً بين إخوة في الدين، تناءت بهم الديار، وتباعدت الأقطار. إن في مخطوطات تراثنا الإسلامي نفائس ووثائق نادرة عن بلادنا، وإن جمعها وتصنيفها ودراستها وتحقيقها أمر لازم بلا ريب، إذ من خلاله يمكننا أن نضع هذا البلد موضعه: حركةً في التاريخ ومشاركة في صنع التراث وإثراء للفكر واستقطاباً للأعلام العلماء وصلة بين المشرق والمغرب تأثراً وتأثيراً هنا وهناك.

من الجنوب من سبها جاء الأستاذ أبو بكر عثمان القاضي الحضيري ليشارك في أعمال هذا المؤتمر. وكانت خلاصة مساهمته لمحات عن حركة الفكر وتاريخ التراث ونشاط الدعوة الإسلامية في تلك الربوع، وعن أعلام كان لهم دور بارز هناك في بلورة الشخصية الاسلامية والمحافظة على طبيعتها المتميزة. وقد اختار الباحث من بين أولئك الأعلام الشيخ أبا عمر عثمان بن عمر الحضيري بوصفه شخصية لعبت دوراً بارزاً في الحياة الثقافية والفكرية في فزان خلال القرن الثالث عشر الهجري. وأسرة الحضيري في فزان من الأسر ذات الجذور العميقة. وهي أسرة لها مكانتها الاجتماعية والعلمية. ومازال أحفاد هذه الأسرة يحافظون على هذه المكانة. ومن خلال أعلام مثل هذه الأسر تتصل حلقات السند في أصول ديننا وتاريخ فكرنا وتأصيل تراثنا.

عن الوثائق وتيسير استخدامها وحلول بعض مشاكل الحصول عليها كانت مساهمة الدكتور إبراهيم المهدوي من قسم الاعلام ـ كلية الآداب ببنغازي. لقد تبنى الباحث تبعاً لتصوره مجموعة من الحلول رأى أنها كفيلة بالتغلب على بعض المشاكل التي تعوق عمل الباحثين والفنيين في مجال صيانة الوثائق والمحافظة على المخطوطات.

إن الوثيقة لها مواصفاتها التي تعطيها خصوصية وأهمية فائقة تنفرد بها، وتجعل عمل الوثائقي يتركز عليها من أجل استثمارها في مجال البحث العلمي.

ما هي السياسة التي يلزم أن يتبعها المشتغلون بالوثائق جمعاً وحفظاً؟ وما هي الحلول المقترحة في هذا المجال؟ وكيف نؤهل العنصر البشري؟ وكيف نوفر التمويل المادي؟ وكيف ننشر الوعي الوثائقي بين كل قطاعات المجتمع؟ وكيف نساعد الباحث على الوصول إلى ما يحتاج إليه في بحثه من الوثائق بسهولة ويسر؟ ما أهمية تأسيس دار للوثائق في بلادنا؟ هذه القضايا وما يتصل بها تناولتها الدراسة المركزة التي شارك بها الدكتور المهدوي في أعمال هذا المؤتمر. وهي قضايا لها أهميتها ولها خطورتها كذلك. ويمكن أن ننظر من خلالها إلى مستقبل البحث العلمي في بلادنا.

من تركيا مزرعة الوثائق والمخطوطات وكتب التراث جاء للمشاركة في أعمال هذا المؤتمر الأستاذ سليمان أبو ستة. وهو موفد للدراسة بكلية الآداب جامعة استنبول. أما موضوع مساهمته فهو حصيلة ما انتهى إليه بعد التنقيب والبحث في الوثائق المتعلقة بليبيا والموجودة في الأرشيف العثماني باستنبول.

وبالإضافة إلى اللمحة القصيرة التي قدمها الباحث عن ذلك الأرشيف وتاريخه، يقترح الباحث عدداً من الطرق التي يلزم أن يتبعها من الباحثين من يقصد إلى الاستعانة في دراساته بوثائق هذا الارشيف. ثم هو يحدد المشاكل التي قد تواجه الباحث هناك. ويعرض للوثائق المتصلة بتاريخ ليبيا. ومنها وثائق مكتشفة حديثاً ومعها تقارير كُتبت عن ولاية طرابلس من قبل بعض الساسة وقادة الحرب. وتتضمن الوثائق كذلك كما حدد الباحث شكاوى وعرائض مرسلة إلى تركيا من قبل مواطنين ليبيين، تعرض فيها نزاعات وظلامات.

إن تاريخ بلادنا لم يكتب بعد، وهذه الوثائق غنية بالمادة التاريخية التي تعرض صور الحياة في قطاعات المجتمع جنباً إلى جنب مع تاريخ السلاطين والولاة والقادة.

في هذا الاطار ذاته، ولكن من زاوية مغايرة، جاءت مشاركة الدكتور حبيب الحسناوي من مركز الجهاد بطرابلس. حيث اتجه الباحث في دراسته هذه التي ساهم بها في أعمال هذا المؤتمر إلى مجموعات الوثائق الخاصة لدى الأفراد والأسر واحتمالات أهميتها العلمية في التأريخ للحياة الاجتماعية والفكرية والثقافية في بلادنا. إن الباحث يحدد الفترة المعنية بها بعد القرن العاشر الهجري ويتساءل: هل حقاً أن هذه الفترة قد أصاب الحركة الفكرية أثناءها جمود وتدهور؟ ويجيب: إن البحث المتأني التدقيق يجعل هذا الإدعاء

تعوزه الحجة والدليل حيث أثبتت بعض الدراسات الحديثة وجود بعض الأفراد والجماعات التي كان لها بعض النشاط في استمرار الحركة العلمية وإن كانت ببطء. لكنه يتساءل: أين الأعمال الفكرية والأدبية؟ وأين المخطوطات المتصلة بتلك الفترة؟ وهل هناك جهود لتجميعها وحفظها. إن المجاميع الخاصة من المخطوطات لها أهميتها بلا ريب كما يثبت الباحث مستنداً في هذا إلى دراسة ميدانية، تمثل تجربة الباحث في هذا الحقل، وهي تجربة يمكن أن تحتذى وتعمم. لقد تركزت دراسة الباحث الميدانية هذه على البحث والتنقيب عن الوثائق المتعلقة بدولة أولاد محمد التي حكمت في فزان منذ أواخر القرن الهجري التاسع إلى أوائل القرن الهجري الثالث عشر. ومن خلال البحث الميداني هذا ظهرت أهمية وثائق الأحباس والمستندات والحجج الشرعية والمراسلات والفتاوى والمعاملات التجارية والرسائل الرسمية. وكلها متصلة بصور الحياة الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والفكرية. وهي تسلط مزيداً من الضوء على أصول وهجرات القبائل والعائلات في القرى والمدن الليبية. ويؤكد الباحث على أهمية الدراسة الميدانية في هذا الموضوع مستنداً في ذلك إلى حصيلة بحثه الجزئي، وهي ٤٠٠ وثيقة بين رسمية وخاصة، تتصل بمختلف النواحي التاريخية لفزان خلال تلك الفترة موضوع الدراسة - ويرجع الفضل في حفظ هذه المجموعة من الوثائق إلى عدد من الأسر تميزت بوجود الوعي الثقافي والحس التاريخي لدى أفرادها، نتيجة استمرار تقاليد التعليم والثقافة لديها، مع استمرار الرابطة الأسرية والاجتماعية بين أفرادها.

إن دعوة الباحث في هذا المؤتمر الوثائقي صريحة. فهو يدعو إلى دراسات ميدانية مماثلة تغطي كل قرى ومدن بلادنا، لتجميع وثائق تاريخنا الاجتماعي والثقافي. وهي دعوة واعية خالصة نكبرها من الباحث ونكبره من أجلها. ومن جامعة سبها كانت مشاركة الأستاذ عبد الرحمن سعد بركة في هذا المؤتمر. وكان عمله داخلاً ضمن التأريخ للثقافة في بلادنا، من خلال نفض الغبار من فوق الصفحات التي تتضمن أسماء الأعلام الذين كان لهم دور في نشر ثقافة الاسلام بين ربوع هذه البلاد، حتى يظهر دورهم في وضعه الصحيح من تاريخنا الاجتماعي، فيتأتى بذلك ربط الحاضر بالماضي، وعقد الصلة بين حياة الأحفاد وتاريخ الأجداد، الباحث تتركز مساهمته في الترجمة لعلم من أعلام الفكر والثقافة في هذا البلد، إنه الشيخ عثمان محمد العالم الذي عاش في الفترة من ٢٦٢ هـ إلى ١٣٥٠ هـ متنقلاً بين مراكز العلم في سبها ومرزق والقطرون والشاطىء والجبل الغربي.

وبالإضافة إلى الترجمة لهذا العالم والكشف عن نشاطه الفكري قدم الباحث في مساهمته هذه مسرداً للوثائق والرسائل والمخطوطات التي تحويها المكتبة التي أنشأها هذا العالم وألحقها بمدرسة الجديد بسبها. فكان لها دور تثقيفي تعليمي رائد في تلك المنطقة وما جاورها. إن الباحث معنيّ بفهرسة هذه المكتبة، لكنه لم ينته من عمله بعد، ومع ذلك فقد انتهى إلى ٧٧ مخطوطة تتضمنها هذه المكتبة.

مع نشأة جامعة قاريونس نشأت المكتبة المركزية بها. وقد أدرك القائمون على أمر هذه الجامعة الناشئة أهمية المكتبة، وأدركوا إلى جانب ذلك أهمية المخطوطات في تكوين المكتبة واستقطاب الدارسين اليها. من أجل ذلك أنفقوا على هذا الجانب بسخاء فاستقدموا المخطوطات أو صورها من مظانها، وبذلوا جهوداً متوالية من أجل أن يكون للمخطوطات في هذه المكتبة ركن مستقل يقصده الباحثون وييسر العمل للدارسين.

ومن المكتبة المركزية بجامعة قاريونس حضر الأستاذ فرج ميلاد شمبسن إلى زليتن ليشارك في أعمال هذا المؤتمر بتقديم صورة حدّد معالمها ببيان وافٍ عن: المخطوطات العربية بجامعة قاريونس: فهرستها ودورها في الدراسات العليا. قدمّ الباحث للمؤتمر صورة عن نشأة قسم المخطوطات بالمكتبة، وعن مصادر هذه المخطوطات التي وصل عددها حتى الآن ٢٧٠٠ مخطوط في مختلف فروع العلم والمعرفة، وعن الظروف الملائمة التي هيئت لهذه المخطوطات والعناية الفائقة التي تحظى بها من خلال استجلاب واستخدام تقنيات متقدمة للمحافظة على هذه المخطوطات.

ومما يدخل ضمن التعريف بقسم المخطوطات هذا ما أثبته الباحث من تهيئة هذه المخطوطات للاستفادة العملية المباشرة منها حيث: «تم تنظيم هذه المخطوطات حسب علومها ووضعت لها فهارس، تمّ إنجاز ثلاثة أجزاء منها بين سنوات ١٩٨٢ - ١٩٨٦.

وفي مجال الآثار المخطوطة لأعلام بلادنا والكشف عنها جاءت مساهمة الأستاذ الصديق نصر من طرابلس. وهو باحث نشط وثبت كذلك. ولعل الصفة الثانية من طبيعة تخصصه لكنها تأكدت لديه فيما أرى من خلال اتصاله بالسند في تاريخ تدوين السنة النبوية؛ فأطروحته التي نال بها «الماجستير» منذ سنين تدور حول منهج المحدّثين والقواعد الموضوعة في نقل الحديث النبوي، مع بيان الفروق بين منهج هؤلاء ومناهج غيرهم. وقد جاء الأستاذ الباحث إلى هذا المؤتمر ليعرّف بواحد من علماء بلادنا. إنه عبد الرحمن البوصيري الذي جاء مدخل الباحث إلى التعريف به من خلال سرده لمراحل حياته مع بيان بآثاره المخطوطة: فالمترجم له - كما يقدمه باحثنا في عبارة سلسة موجزة - هو: ذو فنون متعددة: فهو لغوي ضليع، وأصولي مدقق، ومحدث المعي، ومفسر جهبذ، وخطيب مصقع، لكنه شاعر مقل.

ومن أهم ما تناول الباحث في ترجمته لهذا العالم: بيان شيوخه وتلاميذه ومركزه الاجتماعي والعلمي من خلال المناصب التي تولّاها، ومنها التدريس والقضاء. لقد كان العلامة البوصيري أصولياً ينبذ التقليد، ويدعو إلى فتح باب الاجتهاد. ولعل هذا الموقف

الـواعي إنما كـان لديـه من خلال اتصـاله المبـاشر بمصـادر الحـديث النبوي سنداً ومتناً.

ومن آثار العلامة البوصيري المخطوطة التي أشار الباحث في بحثه إلى عدد منها، نـدرك موسـوعيـة هـذا العـالم: فقـد كتب في أصـول الدين، وقواعد التشريع، ومسائل الفقـه، وصنف في تفسير القـرآن ومصطلح الحديث، وتناول بالكتابة موضوعات عامة تتصل بالمواعظ والآداب.

إن هذا التراث المخطوط لهذا العـالم جدير بالإحيـاء، ومن حقه على الباحثين إخراجه محققاً لإعادة قراءتـه وليحتل مكـانه في المكتبـة الاسلامية. أما مساهمة الباحث هنا فإنها من الخطوات الأولى الرائدة وهي خطوة مشكورة.

في إطـار التعريف بـالأعلام الليبيـين وبتراثهم المخـطوط وبمـظان تراجمهم والتعريف بهم أعـد الأستاذ عـمار جحيدر من مـركز الجهـاد بـطرابلس ورقة كـان محتواهـا بحثاً عن: اتصـال السنـد العلمي في ليبيا. إن قضية السند في تاريخ الأمة الاسـلامية وفكرها قضيـة لها أهميتهـا ولها جـذورها العميقـة عمق أصول الاسـلام. ومن ثم جاء اهتمام العلماء النابهين الأعلام بالسند العلمي وتوثيقه.

إن أعـلاماً من علماء هـذا البلد يمثلون حلقات في سلسلة السنـد التي ربطت بين أعلام في مشرق العالم الإسلامي وأعلام في مغـربه. والزبيدي صاحب معجم تاج العروس اشتهر في أقطار أمة الاسـلام شهرة معجمه. غير أن مؤلفات أخرى له توارت بظل هـذا المعجم. واهتمام الأستاذ الباحث هنا متوجه إلى واحـد من هذه المؤلفـات وهو كتـاب: المعجم الكبير. وهـذا المعجم ليس لغويـاً، إنمـا هـو مسرد لعـدد من تـراجم الأعـلام الـذين هم شيـوخ لـلزبيـدي أخـذ عنهم، أو طلاب تتلمذوا له. وعلاقـة باحثنـا بهذا الكتـاب آتية من أن من بين هؤلاء الأعلام الذين ترجم الزبيدي لهم سبعة من العلماء الليبيين كما أثبت البـاحث من خلال اطـلاعه عـلى الكتاب مخـطوطاً بـالمدينـة. وبعد أن استنسـخ البـاحث هـذه الـتراجم السبـع لهؤلاء العلماء وفق إلى تصوير مخـطوط معجم تراجم الـزبيدي كله في مكـة المكرمة، وأحضره معه ليباشر العمل في تحقيقه، والأمل أن يوفق من بعد إلى نشره. ويمثل هذه الأعمال الفردية الجادة ربما تـألفت حصيلة تكون هي النواة لكتـابة تـاريخ أعـلامنا ضمن الإطـار العام لمسـارد الأعلام في تاريخ الثقافة والفكر لأمة الاسلام.

الأستاذ عمر الزبيدي باحث بمركز الجهاد كان من بين المشـاركين في أعـمال هذا المؤتمـر. وكانت مسـاهمته متجهـة إلى جـانب متصـل بالحياة الثقافية والفكرية في بلادنا خـلال فترة زمنيـة بعينها هي فـترة الاحتلال الإيطالي ومعـارك الجهاد. إن المكتبـات الخاصـة هي رافد الفكر، وفيها عصارته كذلك، وبهذا المفهوم صح القول بل التأكيـد على أن إتلافها من قبل الغزاة كان بحق عملاً همجياً بربرياً، يمارسه أدعيـاء المدنيـة والحضارة. ومن ثم فـإن هذا العمـل هو في مقـدمـة الأضرار الناشئة عن الغزو الصليبي الايطالي لبـلادنا. وهـذا هو مـا حـاول الباحث أن يـبرهن عليه في سلسلة من الأوضـاع والأحـداث التي يؤكد الباحث من خلال سردها على حقيقة مؤداها أن أمتنا وهي جزء من أمة الاسلام قد حرصت على ثقافتها وذاتيتها حتى في أخطر أزمـاتها التـاريخية؛ كتلك التي هـددت وجـودهـا ذاتـه. . . . فكـان العلماء قـادة معاركهـا لحفظ معنى الـذات وقيمـة الكيـان. وفي سرد الأحداث في تاريخ حياتنا الثقافيـة والفكريـة خلال الغـزو الصليبي الايطالي يثبت الباحث أن حلقات الدرس في كـل معاهـد العلم قد توقفت أو كادت منذ خريف عـام ١٩١١، ثم عادت متعـثرة الخطى خـلال سنتي ١٩١٣ ـ ١٩١٤ في مـدن السـاحـل، ثم تـوقفت مـرة أخرى منذ أوائل ١٩١٥ حتى سنة ١٩٢٩.

لقد هاجر كثير من سكان الساحل إلى مناطق في الجنوب، ونقلوا معهم في هجـرتهم الكثـير من الكتب. . . . . . فكـانت محتـويـات مكتبات المجاهدين تتطاير أوراقها في الميادين عقب كل معركة.

إننا نضيف إلى ما أثبته الباحث أن أبسط مـا يمكن أن نعوّض بـه تلك الخسائر التي منيت بها أمتنا في محصولها الفكري والثقافي نتيجة ذلك الغزو، هو أن نسترد ما نهب من بلادنا من تلك المخطوطـات. وتلك مهمة يلزم أن تتولاها جهة ثقافية معنية بقضايا الفكر والثقـافة والتراث.

من هذه الصفحات التي نحررها على هامش المؤتمر الأول للوثائق والمخـطوطات بقيت مسـاهمتان تتصـلان كلتاهمـا بالـروايـة الشفهيـة وأهميتها في كتابة التاريخ. ومبلغ علمي أن مركـز الجهاد معني بهـذا المـوضوع من خـلال مجموعـة من اللجان تـتوزع في ربـوع البـلاد، وتقوم بمسح شامل يتجه إلى تسجيل مـا يمكن تسجيله من الروايـات الشفهية المتصلة بجوانب من حـركة الجهـاد. في هذا الاطـار جاءت مسـاهمة الـدكتور ميـلاد المقرصي من قسم التـاريـخ بكليـة الآداب ببنغـازي في أعـمال هـذا المؤتمـر حيث كتب عن: الـروايـة الشفهيـة والمصادر المدونة في كتابة التاريخ. الباحث يورد في بحثه مجموعة من وجهات النظر متصلة بكتابة التاريخ، ومـدى إمكانيـة الاعتماد عـلى الرواية الشفهيـة أو الوثـائق المكتوبـة والمصادر المـدونة. وهـو يتناول الموضوع في إطاره التاريخي العام، ويتبنى اتجاه اعتماد الرواية الشفهية في كتـابة التـاريخ؛ ذلـك بأن الـوثائق المـدونة كـانت هي الأخـرى روايات شفهية متناقلة، قبل أن تدون.

وبناء على هذه المسلمة فإن الوثائق المدونـة ليست أكثر أهميـة من الوثائق الشفهية. لقد أكد الباحث عـلى أهمية المصـدر الشفهي وعلى قيمة المقابلات الشخصية الشفهية؛ لأنها تؤدي إلى تدوين الكثير من الحقائق التاريخية الجديدة لتصبح وثائق مدونة.

إن البـاحث يثير في دراستـه هذه مجمـوعـة من القضـايـا المتصلة بالتاريخ، وبمنهج البحث التاريخي: كيف تحوّل الرواية الشفهيـة إلى أدلة وشواهد تاريخية مدونة؟ وما أهمية النقد والشك في منهج البحث

التاريخي؟ وكيف ومتى بدأت دراسة التاريخ تتخذ الصبغة العلمية؟

الباحث في طرحه لهذه القضايا في مجال تدوين تاريخه ومنهجه النقدي يلتقي وجهاً لوجه مع الباحثين الاسلاميين القدامى ومنهجهم النقدي الدقيق في تتبع طرق الرواية وتسجيل الحديث النبوي وغربلة مرويات السنة سنداً ومتناً، لكنه لم يثبت في بحثه هذا الجانب المتصل بالتراث.

نسجل هنا أن الباحث في دعوته إلى الاعتماد على الرواية الشفهية يحذر من الارتجالية التي لا تصمد أمام النقد المنهجي المنظم. ويؤكد الباحث على أهمية الرواية الشفهية في دراسة تاريخ مجتمعات العالم الثالث، حيث تستقي الوقائع من ذاكرة الأحياء التي هي ذات أهمية بالغة في إعادة كتابة تاريخ هذه المجتمعات؛ لأن الوثائق المدونة تنتمي إلى سلطات استعمارية أو قيادات محلية مرتبطة بها.

أما المساهمة الثانية المتصلة بالرواية الشفهية فقد شارك بها في أعمال هذا المؤتمر أحد الباحثين بمركز الجهاد الأستاذ عمرو سعيد بغني. وقد اهتم الباحث في ورقته هذه بموضوع: الرواية الشفهية وتجربة الاستخدام في كتابة تاريخ الجهاد الليبي. ومن الحق أن نسجل هنا أن هذه الورقة قد أكملت وسدت النقص الذي مرت الإشارة إليه في عرض البحث السابق، حيث اهتمت الورقة الثانية هذه بتحديد إطار تاريخي وموضوعي كذلك للرواية الشفهية في تاريخ الثقافة الاسلامية حيث وضعت القواعد والضوابط بما لا مزيد عليه.

هذه الورقة المتصلة بالرواية الشفهية تجيب على عدد من التساؤلات التي قد تطرح في هذه القضية: كيف نشأت الرواية الشفهية؟ ما هو الدور الذي لعبته الرواية الشفهية في تاريخ العلم والثقافة عبر مراحل تاريخ الأمة الاسلامية؟ وفي الإطار التاريخي: كيف خدمت الرواية الشفهية التاريخ الإسلامي؟ والأهم من كل ذلك: كيف تطورت الرواية الشفهية إلى منهج طبعته الممارسة العلمية بطابع متميز؟

لقد أحسن الباحث صنعاً إذ نقلنا إلى أجواء إسلامية أصيلة غنية بمصطلحاتها ومناهجها. ولم يكن عمله سرداً قصصياً تاريخياً، إنما هو عود على بدء، ودعوة إلى إحياء ما درس من معالم ثقافتنا وأصالة أمتنا وذاتية تاريخنا وحضارتنا. والباحث يدعو كذلك إلى المزاوجة خلال التجربة الراهنة في إعادة كتابة تاريخنا: مزاوجة بين أصول منهجية إسلامية أصيلة متصلة بالرواية والتوثيق، وبين مجموعة من الوسائل والاستخدامات الحديثة. وهذا هو الموقف الحضاري الواعي حيث الارتباط بالجذور وفهم العصر بمتغيراته، والتأسيس لحياة أجيال الأمة في آفاق مستقبل يحسب للحياة فيه ألف حساب.

هذه جولة جاءت كما أسلفت على هامش المؤتمر الأول للوثائق والمخطوطات لم يكن القصد منها استقراء البحوث التي عرضت في هذا المؤتمر أو تتبع القضايا التي أثيرت فيه، إنما القصد هو أن يقف قراء «الناشر العربي» وأن يطلع الناشر العربي كذلك على مشكلات وطموحات الباحثين. وقد وفد الكثير منهم من أقطار في مشرق العالم الاسلامي وفي مغربه كذلك، على مدينة زليتن، يتحاورون ويتشاورون ويستقطبون أنظار الناشرين وذوي الاهتمام بالقضايا التراثية والفكرية، ولعلهم فعلوا.

لقد توحدت هذه الأمة بفعل كتابها الواحد القرآن الكريم، وبفعل وحدة عقيدتها المتمثلة في الايمان بالله الواحد، بما يرتكز عليه هذا الايمان من أصول وما ينشأ عنه من مقتضيات. ثم تأكدت وحدة هذه الأمة من خلال وحدة ثقافتها. وقد كانت هذه الروح الاسلامية الواحدة تسري في كل جلسات وأعمال هذا المؤتمر ولدى كل المشاركين فيه.

وقد كانت لفتة كريمة بارعة هذه التي تمثلت في اختيار مدينة زليتن مكاناً لانعقاد هذا المؤتمر الأول للوثائق والمخطوطات. فالتاريخ الثقافي لهذه المدينة يعطيها هذه الأهمية، ويؤهلها لهذه المكانة. ويكفي أن نشير بهذا الصدد إلى أن وثيقة الاسلام الأولى، وهي وثيقة الدين الحق والنبوة الصادقة والعقيدة الصحيحة لكل أجيال البشرية الماضية والآتية، هذه الوثيقة وهي القرآن الكريم قد اتصل سندها هنا في هذه المدينة، وذلك من خلال الاهتمام الكبير بهذا الكتاب الكريم رسماً وحفظاً ومدارسة منذ قرون، إذ تأسس هذا المعهد العلمي الذي يستضيف هذا المؤتمر في هذه الربوع وظل مزدهراً إلى يوم الناس هذا.

وانطلاقاً من حقيقة أن الثقافة صورة متكاملة، جاءت مبادرة مركز الجهاد، حيث أقام معرضاً للصور هنا، فأعاد من خلال نماذجه المنتقاة إلى الأذهان صوراً من همجية الصليبية الحاقدة على المسلمين والاسلام، حيث أفرغت الكثير من حقدها خلال الغزو الايطالي لهذا القطر من أقطار أمة الاسلام.

ثم جاء العمل الثقافي التكاملي الثاني، متمثلاً في إقامة معرض للكتب والدوريات بمقر المؤتمر، أعطى فرصة للكتاب هنا، ليظهر إلى جانب المطبوعات في أقطار أخرى عناوين وموضوعات واهتمامات ثقافية وفكرية متنوعة.

إنه بلا ريب مهرجان ثقافة تعددت مظاهره، ونأمل أن يؤتى ثماره. أما المعدون لهذا المؤتمر والمنظمون له، فهم الجنود المجهولون، نأمل لهم من الله مثوبة وأجراً. وأملنا كذلك أن لا يطول الأمد حتى ينعقد المؤتمر الثاني للوثائق والمخطوطات في ظروف ثقافية مواتية، وبجهود مخلصة مكثفة، تتكافأ فيها الأعمال والآمال.